Dimensions Of Contemplative Tendency Of Mikha'il Na'ima In His Work "Najwal Ghuroub" Soliloquy Of The Sundown

Dr. Reem Hilal*

(Received 3 / 9 / 2019. Accepted 16 / 12 / 2019)

□ ABSTRACT □

This research tackles contemplative tendency, which was evident in Mikha'il Na'ima's work "Najwal Ghuroub" *Soliloquy of the Sundown* , and became more intense throughout his pages , not exceeding a hundred and some scores of pages, covering the elements the author witnessed throughout his life ,which drove him to ponder and think over, starting with the Creator, maker of the universe, and ending therewith, and between this beginning and end, passing by the wonders, which Na'ima found around him , then going up towards that which he sets eyes on through the unending space horizons ; and that which he doesn't, then coming down with his contemplations , returning to the earth with all that it contains ; added to that is his reflecting on the individual ego ,to which he attached all those elements, comparing them in each contemplative stop, to find out their disparity both in volume and worth , which each of which maintaining its wonders.

Keywords: Wonders, contemplation, piety.

***Associate Professor – Arabic Language Department- Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University-Latakia-Syria.**

أبعاد النزعة التأمُّليَّة لدى ميخائيل نُعَيمة في مؤلَّفه " نجوى الغروب "

د. ريم هلال*

(تاريخ الإيداع 3 / 9 / 2019. قبل للنشر في 16 / 12 / 2019)

□ ملخّص □

يتناول هذا البحث النزعة التأمُّليَّة التي تجلَّت واضحةً في مؤلَّف ميخائيل نُعَيمة " نجوى الغروب " ، وتكثَّفَت عبرَ صفحاته التي لم تتجاوز بضعاً قليلاً من عشرات الصفحات بعد المئة، شاملةً ما شهده المؤلِّف عبرَ حياته من عناصر، قد حملَتْه على التبصُّر والتفكُّر ، بدءاً من الخالق مبدع الكون ، وانتهاءً به ، مروراً ما بين البداية والنهاية هاتَين بالعجائب التي ألفاها نُعَيمة تحيط به ، ثم ارتقاءً نحو ما يبصر وما لا يبصر عبرَ آفاق الفضاء اللامتناهية ، ثم هبوطاً بتأمُّلاته عائداً إلى كوكب الأرض بمن فيه وما فيه . يُضاف إلى ذلك وقوفه متأمِّلاً عند الذات الفرديّة ، التي أرفَقَها بكلٍّ من تلك العناصر ، مقارِناً في كلّ محطَّة تأمُّليَّة ما بينهما ، لكي يتبيّن له تفاوتهما حجماً وقدراً ، مع احتفاظ كلٍّ منهما بعجائبه .

الكلمات المفتاحيّة : عجائب ، تأمُّل ، تنسُّك .

* **أستاذ مساعد – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سورية .**

مقدّمة:

شكَّلَ ميخائيل نُعَيمة أحد الأدباء المهجريين الذين حملهم اغترابهم إلى البلاد البعيدة ، على التأمُّل في كلّ شيء ، وإن كان نُعَيمة قد بدأ تأمُّلاته من قَبْل هجرته ، واستأنفها حين عاد إلى قريته ، معاوِداً التجوال في آفاق طبيعتها ، ثم لاجئاً إلى كهفه كاتباً متنسّكاً متفكّراً . وإذا كان قد شمل بتأمُّلاته معظم مؤلَّفاته ؛ فإنَّ مؤلَّفه "نجوى الغروب " اكتسب ضمن هذا المنحى أهمية متميّزة ، إذ حين صاغه في نهايات حياته ؛ فقد افتُرِضَ أن تكون تجربته التأمُّليَّة ، قد وصلَت إلى درجة وافية من النضج ، وكثّفَت مرئيّاته الروحيّة عبرَ صفحاته ، وإنْ قلَّت في عددها ، مقارِبةً ما عظمَ حجماً من العناصر وما دقّ ، وما نأى عن المؤلِّف وما منه دنا.

أهمية البحث وأهدافه :

إنَّ هذا البحث ربّما أضاف دراسةً لأدب ميخائيل نُعَيمة ، هذا الذي من خلال تقصّينا أمره تبيّنَ لنا ، أنه لم يلقَ الاهتمام الكافي من قِبَل الباحثين بصورةٍ مستقلّة ، مقابل ما لقيه الأدب المهجريّ بعامّةٍ . بل إنه بخصوص مؤلَّفه " نجوى الغروب " ؛ لم نمرَّ حتى بعنوانه قبلاً لديهم ، إذا كنّا قد مررنا بعنوانات مؤلَّفاته المعروفة مثل "سبعون – مرداد – همس الجفون " . ومن ناحيةٍ أخرى ؛ إنَّ هذا البحث ربّما أضاف دراسةً فيما يتّصل بجنس الخواطر النثريّة الذي خاض فيه نُعَيمة ضمن مؤلَّفه المُتناوَل هنا ، ولم يلقَ الاهتمام الكافي الذي لقيَته الأجناس الأدبيّة الأخرى ، من شعر ، ورواية، وقصّة قصيرة ، ومسرحيّة .

منهجيّة البحث :

وفيما يتعلّق بالمنهجيّة التي اتّبعناها في البحث ؛ فقد تمثّلَتْ في الوقوف التوصيفيّ المتأمّل – ما أمكن – حيالَ ما تنطوي عليه نصوص نُعَيمة التأمُّليَّة عبرَ مؤلَّفه ، والمقارنة ما بينها – هي المتفاوتة – بحسب العناصر التي توقَّفَ عندها ، ثم المقارنة ما بين كلّ نصٍّ لنُعَيمة والنصّ التراثيّ الذي التقى وإيّاه ، ذلك من بين النصوص الدينيّة والصوفيّة والفلسفيّة . لكن هذه المقارنة الثانية لم تتحقّق من منطلق تأثُّر نُعَيمة بهذا أو ذاك من تلك التي تقدَّمَت عليه زمنيّاً ، إنما من منطلق التقاء التأمُّليين – عادةً – ضمن حيّزٍ واحد ؛ حيِّزِ التجربة التي يخوضها كلٌّ منهم ، وضمن النتائج التي ينتهون إليها .

النتائج والمناقشة :

أُسُسُ النزعة التأمُّليَّة في " نجوى الغروب " لميخائيل نُعَيمة :

إنَّ أوّل ما ينبغي الوقوف عنده إزاء هذا المؤلَّف ؛ هو عنوانه " نجوى الغروب " ، نظراً لِما يشير إليه من وصول الأديب إلى نهايات حياته ، وظهوره فيها وكأنه ارتقى ذروة سنيه المتوالية ، ليشرف من خلالها قبل هبوطه في هاوية الموت والصمت على كلّ ما شهده عبر خُطاه السابقة ، بصورة متلائمة وشمول رؤياه ونفاذها. ثم ليُفضي بهذه الصورة متفرِّقةً تارةً ومتكاملةً تارةً ، إلى قارئه مناجياً إيّاه ، استجابةً لِما أملى عليه نهجه المتأمِّل المتفكِّر ، من بثٍّ هادئٍ لِما اغتنى به ، وعدم احتفاظه به مُلكاً فرديّاً . وهو نهجه المتأمِّل المتفكِّر ذاته ، الذي كان قد حمل الحياة والكون قبلاً ،

على أن يُفضيا إليه ببعض غيوبهما مُناجيَين إيّاه كذلك ، بل مُسرَّين إليه ، أو بالأحرى مميِّزَين إيّاه ، ليس عن سوى الأدباء فحسب ، بل كذلك عن الأدباء أنفسهم الذين لا يحوزون دائماً ما يماثل خصوصيّته الروحيّة والفكريّة .

وإذا ما تَتَبَّعنا لفظتَي هذا العنوان واحدةً واحدة ؛ تبيَّنّا في لفظة " نجوى " ، ما يُعيدنا إلى نظريّة التلقّي ؛ إلى ثالوثها[1]، متمثّلاً في هذا الأديب مبدعاً مُناجياً ، وفي مؤلَّفه الذي أدّاه على تواضعه في الحجم واكتنازه بالثمين رسالةً ، وفي قارئه الذي لا بدّ أن يتملّى في جزئيّةٍ جزئيّةٍ من هذه الرسالة التي تناجيه متلقّياً ، من أيّ بقعةٍ كان أو زمان ، ذلك بعد أن كان هذا الأديب في مراحل سابقة هو المتلقّي رسالة الحياة والكون كما أشرنا ، وإن لم يكن هذان الأخيران هما المبدعَين .

أمّا بخصوص " الغروب " في العنوان ؛ فإنه غروب الأديب الذاتيّ ؛ غروب شمسه الفرديّة ، من بعد وصوله إلى الثالثة والثمانين من عمره[2] ، ومروره بما يكفي من مراحل تجربته التأمُّليَّة ، بدءاً من شروقه ، موحياً إلينا ضرورة أن يُفرَغ مخزون الأديب الثرّ للبشر ، من قَبْل أن يحلّ عليه الليل الذي يدنو ، ويُؤذِن برحيله عن العالم دون عودة . إنه غروب نُعَيمة المتفرّد الذي أبى أن يمرّ ، قبل أن يُثمِر عن هذا السِّفْر كنزاً للأدب والإنسانيّة ، وتبايَنَ التبايُن كلَّه عن غروب الخَلق بعامَّةٍ ، بما فيه من تحسُّر ، أو عن غروب خليل مطران – على سبيل المثال – في قصيدته " المساء "، حين تجلّى حزيناً شاكياً دامعاً ، متأسّياً على النهار الذي أفَلَ وانقضى[3] . لكن تجدر الإشارة إلى أنه إذا ما اتَّخذَ الغروب في مؤلَّف نُعَيمة قيمته التراكميّة الثريّة غير المألوفة ؛ فقد ذهب جورج صيدح إلى أنَّ أدب نُعَيمة وُلِدَ كبيراً في الأصل ، وما يعني هذا من عدم مروره بدايةً بخطواته الأولى المتواضعة كما شأن سواه من الآداب ، إنما بدؤه لدى ارتقاء تجربة الأديب الروحيّة والفكريّة إلى درجةٍ وافيةٍ من النضج ، وسيره على امتداد طريقه كبيراً وصولاً به نحو الخلود[4] .

وقد كان يُفترَض أن نُدرِج هذا البحث تحت عنوان التناصّ التأمُّليّ ، بدلاً من النزعة التأمُّليَّة ؛ نظراً لِما سنلحظ من انفتاح نصوص الأديب على سواها من النصوص الموروثة : الدينيّة والصوفيّة والفلسفيّة ، لكنَّ هذا لم يكن – وفق منظورنا – إلا ضمن سياق التوافق والتلاقي ما بين نصوصه ونصوص سواه ، وليس ضمن سياق التأثُّر والتقصُّد والاقتباس ، فصحيحٌ أنَّ الأديب كان قارئاً بما تحمل اللفظة الأخيرة من بُعدَيها الأفقيّ والعموديّ ، مُتَّجهاً تلقائيّاً إلى مثل تلك المؤلَّفات الكبيرة ؛ لكننا لا نرى في مثل هذا المكوِّن المعرفيّ إلا أساساً تالياً لأساس الأديب الأوّل الخاصّ به، المتمثّل فيما أسفرت عنه تأمُّلاته هو ؛ تأمُّلاته الذاتيّة ، تلك التي طالما خَلَدَ إليها على امتداد حياته بأكملها وعبرَ كلّ مراحلها ومحطّاتها . وحين استبعدنا تأثُّر نُعَيمة بتلك النصوص التراثيّة القيّمة ، وقَصَرْنا أمره تجاهَها على التوافق والتلاقي ؛ فكيف لنا أن نتَّفق مع محمّد عبد المنعم خفاجي ، لدى عَدِّه أحد أعمال نُعَيمة النثريّة صدىً عميقاً لفلسفة

---

[1]–يُنظَر هولب ، روبرت . نظريّة التلقّي – مقدّمة نقديّة ، ترجمة عز الدين إسماعيل ، المكتبة الأكاديميّة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2000 ، ص 26 – 27 .

[2]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغُروب ، نوفل ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 2000 ، ص 7 .

[3]–يُنظَر مطران ، خليل . الأعمال الشعريّة الكاملة ، المجلّد الأوّل ، مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعريّ ، جمع وترتيب ومراجعة وتقديم الدكتور أحمد درويش ، الكويت ، الطبعة الأولى ، 2010 ، ص 103 – 106 .

[4]–يُنظَر صيدح ، جورج . أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركيّة ، مكتبة السائح ، طرابلس ، لبنان ، طبعة رابعة منقَّحة ومزيدة ، 1999، ص 244 .

جبران وروحه وفكره في كتابه " النبيّ "[5] ؟ جبران الذي كان صديقاً ومعاصراً له ، وحائزاً رتبتَه الأدبيّة ذاتها دون تقدُّم عليه في شيءٍ منها .

لقد انطلق نُعَيمة في تأمُّلاته بدءاً من آفاق قريته ، طبيعةً وسماءً وأفلاكاً[6] ، ومنذ طفولته مُحجِماً عن مشاركة أقرانه اللعب[7]. ثم تابَعَها في مهاجره التي تَنَقَّلَ عبرها : فلسطين ؛ التي كان يطوف في ناصرتها متأمِّلاً في آثار المسيحيّة [8] . روسيا ؛ التي تأمَّل في نهرها المتجمد " صولا " ومشى على وجهه[9] . أمريكا ؛ التي هاجر إليها بعد انتهائه من مرحلته الدراسيّة في روسيا ، إذ بعد أن ضاق بالجوّ العمرانيّ الخانق في نيويورك ؛ ها هو ذا ينتقل بالقطار إلى والاوالا ،لتنفتح له في طريقه بسطة لا نهاية لها من المدى والسهول والجبال ونهر الميسيسيبي قد حملَتْه على تمجـيد اللــه لجمالها واتّساعها[10] . وهكذا حتــى انتهى إلى قريته عائداً إلى تأمُّلاته عــبر آفاقــها الساحرة[11] ؛ إلى تنسُّكه فيها كاتباً متأمّلاً بين جدران كهفِه[12] ، حاملاً بذلك على تسمية نفسه يوماً ناسك الشخروب[13] . ولعلَّ في رحلة نُعَيمة التأمُّليَّة المديدة المذكورة ، التي كان يخرج فيها من بيته إلى طبيعة قريته ، ويتنقّل من بلدٍ إلى بلد، منتهياً إلى كهفه في قريته ، ثم صائغاً هذا الكتاب بغيةَ بثّ تأمُّلاته بين قرّائه ؛ ما يُذكِّرنا برحلة بوذا الذي خرج من قصره الملكيّ ، وإنْ بصورةٍ نهائيّةٍ دون عودةٍ إليه ، تاركاً ابنه وزوجته والأهل ، إلى الطرقات متأمِّلاً متقشِّفاً ، ثم منتقلاً من مكانٍ إلى آخر، كي يبدأ بعد سبع سنوات ببثّ تعاليمه بين الناس[14] .

تأمُّل نُعَيمة في الخالق والذات الفرديَّة :

إننا في هذا المؤلَّف حيال قطبَين متقابلَين ، أو متباينَين ، أو غير متعادلَين ، نظراً لاتّساع البَون اللامتناهي فيما بينهما . فهناك من جهةٍ قطبُ الخالق ، مبدع الكون ، بكلّ ما ينطوي عليه من أحياء وأشياء ، يُفترَض أن تبعث على الخشوع والشَّدَه والذهول ، من أعظمها إلى أدقّها ، من أبعدها إلى أقربها[15] . وهناك من جهةٍ قطب الأديب ، الذي إن شكَّلَ واحداً من المخلوقات البشريّة ؛ فإنه تميَّز عن غالبيّتهم ، بعدم مروره على تلك الإبداعات الإلهيّة مرورَ من أَلِفَ

---

[5]–يُنظَر خفاجي ، محمّد عبد المنعم . قصّة الأدب المهجريّ ، دار الكتاب اللبنانيّ ، بيروت ، 1986 ، ص 385 – 386 .

[6]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . سبعون ، حكاية عمر 1889 – 1959 ، المرحلة الأولى 1889 – 1911 ، نوفل ، بيروت ، الطبعة الثانية عشرة ، 2011 ، ص 75 – 76 .

[7]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 117 – 118 .

[8]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 181 – 182 .

[9]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 387 – 388 .

[10]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . سبعون ، حكاية عمر 1889 – 1959 ، المرحلة الثانية 1911 – 1932 ، نوفل ، بيروت ، الطبعة التاسعة ، 2008 ، ص 8 .

[11]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . سبعون ، حكاية عمر 1889 – 1959 ، المرحلة الثالثة 1932 – 1959 ، نوفل ، بيروت ، الطبعة الثامنة، 2004 ، ص 41 – 42 .

[12]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 66 .

[13]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 60 .

[14]–يُنظَر ديورانت ، ول . قصّة الحضارة ، الجزء الثالث من المجلّد الأوّل ، 3 ، الهند وجيرانها ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربيّة ،الطبعة الخامسة ، د– ت ، ص 67–72.

[15]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 5 .

واعتاد ، بل بتحويله إيّاها برهافة إحساسه وعمقه ، ودقّة ملاحظته ، ونقاء فطرته ، إلى عجائب ، تستحقّ ما لا نهاية له من التأمُّلات والتساؤلات ، ومن ثمَّ ما لا نهاية له حقّاً من الخشوع والشده والذهول[16] .

وحين كان الخالقُ مُبدِعَ الكون بأكمله ؛ كان لا بدّ من أن يملكه بأكمله ، من أن يشغله بحضوره دون استثناء لأيّة واحدةٍ من جزئيّاته ، فيملأ وحده – وفق منظور نُعَيمة – الفضاء والزمان من الأزل إلى الأبد ، ويكون هو وحده الحـــياة ، ويـكون هو وحده المـحبة[17] ، تلك التي أكَّدَها النَّـبيُّ عيسـى ، جاعلاً منهـا أحد أقانـيم المسيحيّة[18] . ومقابل هذا كلّه ؛ فإنَّ الذات الفرديّة التي لم تَخلُق ولم تَملك ولم تَشغل سوى حيِّزٍ أقلّ من الضئيل في الكون ؛ شكَّلَت – وفق منظور نُعَيمة – رهينة الزمان والمكان ، ورهينة النموّ والانحلال نفياً لخلودها ، ورهينة البغض والكراهية[19] ، إشارةً إلى البشر جميعاً الذين لاينفكّون يتنازعون منذ زمن قابيل وهابيل .

وحين كان الخالقُ مُبدِعَ الكون ومالكَه وشاغلَه ؛ فإنه – وفق منظور نُعَيمة – لا بدّ من أن يكون هو مُدَبِّرَه بأكمله ، بجزئيّاته وكليّاته وآزاله وآباده[20] . أمّا سكّان الأرض الذين كان قد بلغ عددهم وقتَ تأليف هذا الكتاب ثلاثة مليارات ونصف ؛ فقد وصل كلّ منهم – وفق منظور نُعَيمة – إلى الغرور والجنون ، لدى ظنِّ كلٍّ أنَّ بإمكانه بعقله الفرديّ المحدود أن يُكيّف الأرض والسماء وما فيهما وفق هواه ، دون أن يُلقي بالاً إلى المدبِّر الأوّل صاحب العقل الأوّل[21] . هذا وإنْ كان يُفترَض هنا ألّا يتغافل من بين هؤلاء المليارات عن المؤمنين الذين هم على تواصلٍ دائم مع المدبِّر الأوّل، مُوكِلين أمرَهم إليه ، والذين هو واحد منهم . يقول بشأن شغل الخالق الكون وامتلاكِه :

وأَبصرتك يا ربّي تملأُ الفضاءَ من الأَزل
وإلى الأَبد .
فأَنت وحدك لا يحصرك زمان أَو مكان .
وأَنت وحدك الحياة .
وأَنت وحدك المحبّة .
أَمّا أَنا فلا أَزال رهين الزمان والمكان ،
ورهين النموّ والإِنحلال ،
ورهين البغض والكراهية .[22]

ملاحظٌ من خلال النصّ السابق بشأن تأمُّلات نُعَيمة وثناءاته على خالقه ؛ كيف يتوجّه بها إلى الخالق مباشرةً، وبصيغة المخاطَب ، لكن من منطلق الخضوع والضعف ، وليس كما لدى الخالق الذي يتوجّه مُخاطِباً البشر من

---

[16]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 5 .
[17]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 33 – 34 .
[18]–يُنظَر الكتاب المقدَّس . دار المشرق ، بيروت ، 1989 ، إنجيل متّى ، الإصحاح الخامس ، الآيات 43 – 47 .
[19]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 34 .
[20]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 37 .
[21]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 37 – 38 .
[22]–المصدر نفسه . ص 33 – 34 .

منطلق القوّة والقدرة اللامتناهيتَين . البَون شاسعٌ ما بين الله خالقاً والأديب واحداً من المخلوقات ، شاسعٌ إلى حدٍّ لا يمكن التعبير عنه بالكلمات والعبارات اللامحدودة ، وصيغة المخاطَب إن شكَّلَت قاسماً مشتركاً بين القطبَين ؛ فإنها لا بدّ من أن تتفاوت لدى التحاقها بكلّ قطب : " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ** ... " [23] . ولعلَّ في خطاب نُعَيمة الخاضع المتذلِّل لربِّه؛ ما يُعيدُنا إلى أبيات رابعة العدويّة ، وإن كان خطابها في سياق الحبّ والهوى الإلهيَّين ، اللذَين تأتَّيا كذلك من تأمُّلها وتعجُّبها وذهولها متصوِّفةً حيال عظمة الله مبدع كلّ شيء :

أحبك حُبّين حُبَّ الهوى وحُبّاً لأنكَ أهلٌ لذاكا
فأمّا الذي هو حُبُّ الهوى فشُغلي بذكرك عمّن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفُك لي الحجب حتى أراكا[24]

تأمُّل نُعَيمة في العجائب القريبة والذات الفرديّة :

وبخصوص الكون الذي أبدعه الخالق بكليّته ؛ يهبط الأديب بتأمُّلاته نحو العجائب القريبة التي شهدَها من حوله ، منذ لحظة شروقه في الحياة حتى لحظة غروبه . وهو لا يرى بفعل كثرتها وتنوّعها ، من داعٍ للغوص في تعدادها وتسميتها ، هذا إذا لم يرَ فيهما استحالةً في الأصل . لذا اكتفى بالتعبير عن عجز أيّ إنسانٍ ، عن أن يستوعب عقله وخياله أصغرها ، وعن عجز أيّ مبدعٍ بإحدى وسائله التعبيريّة التي يمتلك ؛ ريشته أو قلمه أو لغته ، عن أن يحيط بأسرارها . يقول في هذه العجائب التي افتتحَ بها مؤلَّفه :

عجائبك يا ربِّ تكتنفني
منذ أَن خرجتُ من بطن أُمّي
وحتى شارفَتْ شمسي على الغروب .
وأَصغرها أَكبر من أَن يحيط به أَيّ عقل ،
أَو أَن يستوعبه أَيّ خيال ،
أَو أَن ترسمه ريشة ويصفه قلم ،
أَو أَن تتلفَّظ به شفتان ولسان .[25]

لقد شمل الأديب بتأمُّلاته ما أمكَنَ من العجائب القريبة المحيطة به ، على الرغم من اتِّخاذها – للوهلة الأولى– مظهر البساطة ، ووصولها المباشر إليه عن طريق حواسّه الخمس كما لدى سواه من البشر ؛ إذ ليس هناك لدى نُعَيمة – بحسب ما خلصَ صابر عبد الدايم من مجموع أعماله – شرف ولا دناءة ، مادام الله موجوداً في كلّ ما خلقه ،

[23]–سورة الروم . آية 40 .

[24]–أبو الفرج بن الجوزي . صفوة الصفوة ، دار المعارف ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، الطبعة الأولى ، 1356هـ ، الجزء الرابع ، ص18 .

[25]–نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 5 .

ومادام كلّ ما خلقه موجوداً فيه ، ومادام لا يمكن لمعدن الشرف أن يكون دنيئاً ، فأصغر ما في الحياة يتمِّم أكبرها ، وأكبر ما فيها يتمِّم أصغرها[26] . إنَّ نُعَيمة لا يجد غضاضةً في إبراز تعجُّبه من طعامه ، وشرابه ، ولباسه ، وسيره ، ونومه ، ونهوضه ، ومن كلّ ما يظهر ملحَقاً به ، وبحياته ، وفي متناول يده[27] . وبذلك يبدو كأنه استجاب لله في دعواته الكثيرة إلى التفكُّر في هذه الأمور عبرَ آياته ، وإلى تبيُّن ما تنطوي عليه من قدراتٍ ، يتعذّر – مهما طالَ الزمان – الاهتداء إلى أسرارها وحقائقها ، ومن ثم إلى حيازة ما يماثلها ، إذ كان من آيات الله قوله في الطعام : " **وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ** "[28] ، وقوله في الشراب : " **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ...** "[29] ، وقوله في اللباس: " **وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ...** "[30]، وقوله في السير : " **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...**"[31] وقوله في النوم : " **وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...** "[32] ، وقوله في النهوض : " **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ...** "[33] .

ومقابل وقفة نُعَيمة عند تلك العجائب ؛ يستدرك ملتفتاً إلى ذاته الفرديّة ، ليبدو كأنه يتساءل عن كيفيّة اندهاشه من تلك العجائب البسيطة من حوله ، وهو يشكِّل بكُليّته المركَّبة العجيبة الكبرى التي أفصحَت له في كلّ عنصرٍ من عناصرها – بدءاً من النفس وانتهاءً بالخليّة – عن سرّ العظمة الإلهيّة ، وأظهرَته عاجزاً عن تفسيرها ، على الرغم من حلولها فيه وتشكيلها إيّاه[34] . بل إنَّ نُعَيمة ربّما تغافَلَ عن أن يجد في هذه الذات عجيبةً ثنائيّةَ البُعدَين ، لأنها إلى جانب اتّسامها ببعثها على الاندهاش ؛ تميَّزَت عن سواها من عجائب المخلوقات غير البشريّة وعجائب الأشياء ، بتمكُّنها من هذا الاندهاش الذي رأينا الأديب يتنقَّلُ به من محطَّةٍ إلى محطَّةٍ على امتداد مؤلَّفه ، ويعبِّرُ من خلاله عن أيّة قدرةٍ تأمُّليَّة حباه بها الخالق مع شريحةٍ من البشر . وبوقفةِ نُعَيمة عند ذاته الفرديّة ؛ ربّما يكون قد استجاب أيضاً ، لدعوات الله المتكرِّرة التي لا تفتر إلى التفكُّر والتبصُّر في النفس وما تنطوي عليه كما في قوله : " **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** "[35] .

وإذا ما ظهر نُعَيمة بشأن تفكُّره في ذاته الفرديّة ، مُواكِباً ما بين عجيبتها الكبرى وصِغَرِ حجمها ؛ فإنه التقى هنا مع جلال الدين الروميّ في إحدى رباعيّاته ، وإنِ اختلفَ سياقها إلى حدٍّ ما ؛ إذ بدأ الروميّ تلك الرباعيّة بالإخبار عن صِغَرِ جسمه ، إلى درجةٍ تجعل من العسير رؤيته دون جهد بالقياس إلى اتّساع الكون . ثم أتبعَ هذا الإخبار بتساؤله عن كيفيّة استيعاب هذا الجسم الصغير كلّ هذا الحبّ الكبير الذي وُجِدَ به ؟ حبِّه الإلهيّ الذي مررنا بمثله لدى المتصوِّفة رابعة العدويّة :

---

[26]–يُنظَر عبد الدايم ، صابر . أدب المهجر – دراسة تأصيليّة تحليليّة لأبعاد التجربة التأمُّليَّة في الأدب المهجريّ ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1993 ، ص 254 .

[27]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 6 .

[28]–سورة يس . الآية 33 .

[29]–سورة النحل . الآية 10 .

[30]–سورة النحل . الآية 81 .

[31]–سورة يونس . الآية 22 .

[32]–سورة الروم . الآية 23 .

[33]–سورة الأنعام . الآية 60 .

[34]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 7 .

[35]–سورة الذاريات . الآية 21 .

جسمي صغيرٌ حتى إن تراهُ بجَهْدٍ
كيفَ يُمكِن لهذا الحُب الكبيرِ أن يُوجَدَ بي
انظر إلى عينيكَ صغيرتانِ
ويمكِنُهما أن يُبصرا أشياءَ هائلةً[36]

كما نرى من خلال النصّ السابق ؛ كيف أنَّ الروميّ ما لبثَ أن أتبعَ تساؤله ذاك بتعجُّبه من عينَي الجسد اللتَين على الرغم من صِغرِهما كذلك ؛ يمكنهما أن تبصرا أشياءً هائلة . لكن تجدر الإشارة إلى أنه إذا ما التفتَ هنا إلى صيغة المخاطب بعد المتكلّم : " جسمي – عينيكَ " ؛ فليس من أجل أن يفصل عينَيه هو عن عينَي من يتوجّه إليه مُخاطِباً ، إنما من أجل التعبير عن مدى التوحُّد فيما بينهما ؛ فيما بين ذاته وذات المخاطَب ، مادامت ذوات البشر جميعاً ، عيونهم جميعاً ، قد خُلِقَت من نفسٍ واحدة : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ...** "[37] .

تأمُّل نُعَيمة في الفضاء والذات الفرديّة :

وبعدَ هبوط نُعَيمة بتأمُّلاته نحو العجائب القريبة البسيطة ، وإنْ قابَلَتْها ذاته الفرديّة عجيبةً كبرى ؛ نراه ينطلق محلِّقاً عبر بحار الفضاء الكونيّ ، ليتبصَّر بما لا نهاية له من النجوم والكواكب والأقمار أعداداً وأشكالاً وأحجاماً، وبنظام الدوران الدقيق الذي يحكمها مجتَمِعةً ، منذ ما لا نهاية له من الأزل إلى ما لا نهاية له من الأبد ، دون أن يتيح لأحدها الحياد عن مداره ، والإخلال به وبمدارات سواه ، بفعل ترنُّح أو تعب أو نعاس[38] .

ثم يعود نُعَيمة إلى ذاته الفرديّة ، التي كانت قد ترجَّحَت ما بين تضاؤلٍ أمام الخالق ، وبعثٍ على التعجُّب أمام العجائب القريبة ، ليبدو كأنه يبتغي المقارنة كذلك ما بينها وبين الفضاء الذي يفوقها بما لا يُقاس . لقد عادت الذات الفرديَّة هنا إلى التضاؤل ، من حيث تشكيلها ذرَّةً لامُتناهية الدقّة ، في بحار الفضاء اللامُتناهية الاتّساع . وقد دَلَّ على هذا التباين بينهما ، حين عبَّرَ عن عدم تمكُّنه بسَمعه المتواضع ، من التِقاط غناء الأفلاك وهي تدور[39] ، أو بصورةٍ أكثر شمولاً حين أوحى إلينا عدم تمكُّنه بحواسِّه وإدراكاته المحدودة ، من استكناه الأسرار الخفيَّة ، المتعلِّقة بنظام هذه الأفلاك ، واكتفى بتصَوُّرِها تصوُّراً ، من خلال روحه التي بشفافيّتها وخصوصيَّة أبعادها ؛ استطاع التحرُّك والتحليق والغوص كيفما شاء .

بل إنه بشهوده المَجاهر التي تبصر اللامتناهي في الصغر كالذريرات التي يتألّف منها الجوهر الفرد ، والمَراقِب التي تبصر اللامتناهي في الضخامة كالكواكب التي تبعد ملايين السنوات الضوئيّة عبر آفاق الفضاء ، وتقيس أحجام الكواكب وسرعتها وأبعادها[40] ؛ يبدو كأنه عاصَرَ زمن سين الاستقبال في كلمة " سَنُرِيهِمْ " ضمن الآية الكريمة : " **سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...** "[41] . وإذا ما أوردَت الآية الكريمة الآفاق وأنفسهم ضمن سياق واحد معاً ، سياق عَظَمةِ الخَلق الإلهيّ ؛ فإنَّ هذا لا يتنافى مع مفارَقَة نُعَيمة ما بينهما ، نظراً

---

[36]–الروميّ ، جلال الدين . رباعيّات مولانا جلال الدين الروميّ ، تأويل محمد عبد إبراهيم ، دار الأحمدي للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1998 ، ص 48 .

[37]–سورة النساء . الآية 1 .

[38]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 8 – 9 .

[39]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 9 .

[40]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 22 – 23 .

[41]–سورة فُصِّلَت . الآية 53 .

لتقديم الآية الآفاق على أنفسهم ، وما يعني هذا من تفوُّق الأولى على الثانية في الأهمية، بحسب ما جاء في بحث التقديم والتأخير للجرجانيّ[42] .

تأمُّل نُعَيمة في كوكب الأرض والذات الفرديّة :

أمّا فيما يتعلّق بتأمُّل نُعَيمة في كوكب الأرض الذي يضمُّ ذاته الفرديّة ؛ فقد تجلّى له – من جهةٍ أولى – جرماً يدور به وفق النظام المحدَّد له ، ويخضع لهذا النظام بصورة كليَّة ، إلى درجة افتقاده إرادته الفرديَّة أمام جبروته ، وظهوره بذلك كأنه قد وصل إلى حالة من السكون والثبات كقلعةٍ منيعةٍ[43] ، مثلما يحدث عادةً من انقلاب الأمر إلى ضدّه في حال المبالغة والإفراط .

ومقابل تشكيل كوكب الأرض واحداً من الأجرام اللانهائيّة التي تستكين لنظامها ؛ فقد تجلّى لنُعَيمة – من جهةٍ ثانية – بكلّ ما يحتويه عبرَ آفاقه من إبداعات نامَّة على عظمة الخلق الإلهيّ ، من أكثرها دقَّةً إلى أكثرها عتوّاً ضمن طبيعته الحيَّة والصامتة ؛ أي من أصغر جرثومة وبعوضة إلى أكبر فيل وحوت ، ومن ذرَّة الرمل وقطرة الماء إلى أعلى جبل وأوسع محيط ، ومن أحقر نبتة إلى أعتى أرزة[44] . يُضاف إلى ذلك ما تميَّزَ به البشر على هذه الأرض عن سائر المخلوقات من أمور كثيرة ؛ كالقدرة على النطق الذي به يحقّقون التقارب أو التباعد فيما بينهم ، ويعبِّرون عمّا ينتابهم من حالات كالحبّ أو الكره ، وعمّا يسلكون من تصرّفات كالغناء أو الندب ، الصلاة أو العربدة[45] . إلى جانب ما تميَّز به بعض البشر – وهو واحدٌ منهم – من قدرةٍ على التخيُّل الذي من خلاله يتخطّى كلٌّ حدود المألوف ؛ فيجمع ما بين الأضداد ، بفتحِ أبواب نفسه على الكون كلّه ، ويتجاوز أبعاد الزمان ، بجمعه ما قد كان وما هو كائن وما سيكون[46] .

وفيما يتَّصل بالعلاقات القائمة بين البشر على هذه الأرض وعلاقاتهم معها ؛ فقد تمنّى نُعَيمة لو أنَّ بإمكانها أن تنطق ، كي تتحدّث عن تاريخ التنازع فيما بينهم على حدودها التي قسّموها بحسب جماعاتهم منذ مليون عام؛ تدرُّجاً من التقاتل بالأكفّ والأرجل والأسنان ، مروراً بمختلف أنواع الأسلحة ، وصولاً بها إلى القنابل المحرِقة والجرثوميّة والذريّة والهيدروجينيّة ، فالصواريخ عابرات القارّات ، فالأقمار الصناعيّة تمخر عباب الفضاء ، فالأساطيل تجوب البحار[47] . ثم تخيَّل أنَّ الأرض تخاطبهم بأنهم على اختلاف انتماءاتهم أبناء لها ، تضمُّهم بخيراتها وعطفها ومحبّتها أُمّاً ينبغي أن يخضعوا لنظامها وحده[48] ، ميراثاً مشتركاً للجميع على السواء[49] .

أمّا بخصوص ذاته الفرديّة في هذا الخِضَمّ ؛ فيُفترَض بنُعَيمة أن يكون قد تصوَّرَ مدى التضاؤل الذي انزلقَت فيه أكثر وأكثر ، لعدم اقتصار أمرها على وجودها – هي صغيرة الشأن – على سطحها مع سواها من المخلوقات البشريّة

---

[42]–يُنظَر الجرجانيّ ، عبد القاهر . دلائل الإعجاز ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1978 ، ص 84 .

[43]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 12 .

[44]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 12 – 13 .

[45]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 14 – 16 .

[46]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 28 – 30 .

[47]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 103 – 104 .

[48]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 111 – 112 .

[49]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 105 .

وغير البشريّة ؛ إنما لظهورها ثنائيّة التضاؤل ، ما بين أرضها التي تضمُّها مع المخلوقات عبرَ البقاع والأزمنة اللامتناهية ، وبحار الفضاء التي تضمُّها مع أرضها جرماً يكاد لا يُحسَب مع ما يتعذَّر إحصاؤه من الأجرام .

وبشأن وقفة نُعَيمة عند خراب الأرض الذي ساد عبر العصور ؛ ما يعيدنا إلى قصيدة الشاعر الإنكليزيّ توماس إليوت " الأرض الخراب "[50] ، التي ضَمَّنَها خيبة جيل ما بعد الحرب العالميّة الأولى ، من ذاك العالم الكابوسيّ القاتم الذي حلَّ على الأرض بفعل ما حدث ، والتطلُّع إلى الخلاص منه بما بات يملؤه من موت وخوف وضياع وخطر على الوجود الإنسانيّ . لكن يبقى الفارق واضحاً لدى المقارنة ما بين صياغة نُعَيمة النثريّة البسيطة المتأتّية من انفعاله الذاتيّ تجاه ما يشهد ، وصياغة إليوت المعقَّدة المكثَّفة بما زَحمَ القصيدة من رموز وأساطير ، واقتباسات لِما كَثُرَ من نصوص سابقة ، وإشارات إلى ما كَثُرَ من أسماء أعلام ، وبما تعدَّدَ من اللغات .

تأمُّل نُعَيمة في الخالق والذات الفرديّة ثانيةً :

لقد بدأ نُعَيمة تأمُّلاته بالمقابلة ما بين الخالق والذات الفرديّة كما وجدنا ، وها هو ذا يعود ثانيةً إلى المقابلة ما بين القطبَين المذكورَين ذاتَيهما ؛ القطبَين غير المتعادلَين ، مستكمِلاً بذلك دائرته التأمُّليَّة التي تمثِّل صورةً مصغَّرةً لدائرة الكون لامتناهية الأقطار ، صورةً لدائرة الطوف حول أيّ معبد ، لدائرة السُّبحة التي تَداوَلَها البشر على تبايُن أديانهم ، لدائرة المولويّة التي ابتكرها جلال الدين الروميّ ، لدائرة الذَّرَّة المتشكِّلة من دوران إلكتروناتها حول نواتها . لكنه إذا ما بدأ بِخشوعِ ذاته الفرديّة وشَدَهِها وذهولها حيال تجلّيات الإبداع الإلهيّ في بداية الدائرة هناك ؛ فإنه انتهى هنا إلى ما آلَ إليه الخشوع والشَّدَه والذهول ، من شعوره بعجز إرادته الكليّ أمام الإرادة الإلهيّة ، وبعدم تمكُّنه من التحرُّك في أيّ أمرٍ خارج ما رسمَتْه له[51] . ثم إنه من شعور ذاته الفرديّة بالعجز عند نهاية الدائرة ذاتها ؛ وصل حيال خالقه إلى درجة الاستسلام التامّ الذي إلا عن فكرته لا يستطيع التخلّي[52] . ثمَّ من استسلامه وصلَ إلى درجة الاتِّحاد بالخالق ؛ هذا الذي رأى فيه شهوةً تَفُوق سائر الشهوات[53] كما هو بديهيٌّ لدى المتصوِّفة . ثمَّ من الاتِّحاد بالخالق وصلَ إلى الانشغال بفكرة الموت إلى حدِّ تشكيله هاجساً لديه، على نقيض معظم البشر الذين لا يبالون به ويستميتون في سبيل إرجائه[54] . وبذلك بات شأن ذاته الفرديّة هنا، كما شأن الورقة الضعيفة التي لا تستطيع أن تشاء إلا ما يشاء لها غصنها الذي منه تفرّعَت ، وما تشاء لها الشجرة التي منها تفرّعَ الغصن ، وما تشاء التربة والشمس والبحر والهواء ، بل ما يريده الكون الذي يشكّل أصل الشجرة ومَنبتها[55] . وبالعودة إلى انشغال نُعَيمة بالموت في هذه المرحلة الأخيرة من حياته ؛ لا يُفترَض أن يظلّ متأتّياً من فكرة التناسُخ التي وجدها صابر عبد الدايم عبرَ أعمال نُعَيمة السابقة ، قد حاكَت العقيدة الهنديّة القديمة النامّة على حبّ البقاء لدى الإنسانيّة[56] ، أو التي لم يَدرِ جورج صيدح ما إذا كانت قد أُوحِيَت

---

[50]–يُنظَر لؤلؤة ، عبد الواحد . الأرض اليباب – الشاعر والقصيدة ، المؤسَّسة العربيّة للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1995، ص 35 – 57 .

[51]–يُنظَر نُعَيمة ، ميخائيل . نجوى الغروب ، ص 40 .

[52]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 70 .

[53]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 70 .

[54]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 83 – 84 .

[55]–يُنظَر المصدر نفسه . ص 40 .

[56]–ينظَر عبد الدايم ، صابر . أدب المهجر ، ص 453 .

إليه في روايته "لقاء " من كتابَي جبران رماد الأجيال والنار الخالدة بفعل تماسّه معه في الرابطة القلميّة[57] . بل إنَّ نهايته التي باتت تقترب يوماً بعد يوم ، وتُقصِّر المسافات بينه وبين الله يوماً بعد يوم ؛ ربّما جعلَتْه واحداً من الفلاسفة الذين يجدون في الموت خَلاصاً وتحرُّراً من عقال الجسد ، وفكاكاً من أسر شهواته ونزواته ؛ خَلاصاً وتحرُّراً إلى الله مستعيداً فكرة الاتِّحاد به والارتياح إلى كنفه .

لكن إذا ما اتَّضحَت البداية والنهاية في دائرة نُعَيمة التأمُّليَّة ؛ فقد ظهرت دائرة المولويّة لدى جلال الدين الروميّ – على سبيل المثال – ضمن إحدى رباعيّاته ؛ قد خلَت من بدايتها ونهايتها ، إذ لا يبالي من يدور عبرها إلا بالدوران ، مُواكِباً دُوار الكون الذي لا يعرف رأسه من قدمه :

مُنعَطَفٌ باطِنيٌّ بنا
يجعلُ الكونَ يدُوخ
رأسُهُ غيرُ مُدرِكةٍ للقَدَم ولا القَدَم للرأسِ
لا أَحَدٌ مُبالٍ كلٌّ إلى الدَّوَران[58]

وعَبْرَ هذه الدائرة التي اكتملَت وانغلقَت في تجربة نُعَيمة التأمُّليَّة ، وافتُرِضَ أن تشكِّل توكيداً لِما ذهب إليه جورج صيدح من اتِّسام كلّ بحثٍ طَرَقَه الأديب بالتعمُّق والشمول[59] ؛ نلحظ أنه لم يعتمد التدرُّج المنطقيّ لتأمُّلاته الشاملة لمؤلَّفه ؛ أي لم يذهب بها من الأكبر إلى الأصغر فالأصغر ، أو من الأصغر فالأكبر فالأكبر، بل إنه رجَّحَها ما بين الأكبر والأصغر هذَين ، بفعلِ ما أملَت فوضويّته الروحيّة المتدفّقة ، التي لم تمنح العقل والمنطق في حالها سوى الحَيِّز الضئيل ، بل أقلّ من الضئيل ، بالقياس إلى العقل الإلهيّ الأوّل الذي كم ألفينا نُعَيمة يغوص في عجائبه ، كما هي الحال لدى سائر المتأمّلين والمتصوّفة .

وبترجُّح الذات الفرديّة التي أَرفَقَها نُعَيمة بكلِّ عنصرٍ عبرَ وَقفاته التأمُّليَّة ، ما بين التضاؤل حيال خالقها ، وتشكيلها عجيبةً كبرى حيال العجائب القريبة منها ، وعودتها إلى التضاؤل متدرّجةً حيال الفضاء ، ثم حيال كوكب الأرض الذي تحيا فيه ، ثم حيال الخالق ثانيةً ؛ ما يُذَكِّرنا بالآية الكريمة التي صوَّرَت مراحل وجود الإنسان المترجِّحة ما بين ضعفٍ وقوّةٍ : " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً** ... "[60] . وكذلك ما يجعلنا نلحظ الموضوعيّة في تبصُّره بحقيقة ذاته الفرديّة ؛ موضوعيّته التي أعطَت ذاته حقّها كما هو دون زيادةٍ أو نقصان ، على نقيض ما لدى بعض الأدباء المهجريين الذين ألفاهم صابر عبد الدايم يُعَمِلِقون ذواتهم في كلّ حين ، إلى حدّ جَعْلِها وسْعَ الكون ، مثل جبران الذي يعتدّ بنفسه ، ويرى أنها بؤرة الوجود ، وأنَّ كلّ ما في الوجود هو في نفسه، وحين يتكلّم عن خلود الوجود لا يلبث أن يُمنّي نفسه بالخلود[61] .

---

[57]–يُنظَر صيدح ، جورج . أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركيّة ، ص 246 .
[58]–الرومي ، جلال الدين . رباعيّات مولانا جلال الدين الروميّ ، ص 37 .
[59]–يُنظَر صيدح ، جورج . أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركيّة ، ص 244 .
[60]–سورة الروم . الآية 54 .
[61]–يُنظَر عبد الدايم ، صابر . أدب المهجر ، ص 335 .

ومثل أبي ماضي الذي يتخيّل في قصيدته " المجنون " أنَّ الوجود في قبضته ، ويهزأ بكلّ مميّزات الوجود الأكبر، ويعتقد أنه كلُّ شيء في الوجود ، وأنَّ بداخل ذاته المحدودة ينطوي العالم[62] . بل إنَّ في وقفات نُعَيمة عند ذاته الفرديّة؛ ما يُظهِرُه متفهّماً الفيلسوف اليونانيّ سقراط ، حين سأل يوثيديموس ما إذا كان قد ذهب إلى دلفي ؟ وما إذا كان قد قرأ على جدار الهيكل عبارة : " اعرَف نفْسَك " ؟[63] إنَّ نُعَيمة حقّاً تفكَّر في نفسه وتدبَّر ، سعياً نحو معرفة حقيقتها ، وهو إن لم يُحَصِّل من هذه المعرفة سوى القليل الذي لا يكاد يُذكَر ؛ فعلى الأقلّ بذلَ ما أمكنَ من محاولاتٍ في هذا السبيل.

أمّا بشأن تأمّلات نعيمة في كلّ ما سبق الوقوف عنده ، من الخالق والعجائب القريبة والفضاء والأرض والذات الفرديّة ؛ ففيها ما قد يجعله متعبِّداً بما يفوق سواه أضعافاً كثيرة ، بل إنه في مجال تفكُّره في الكائنات والأشياء الأصغر تحديداً ؛ يبدو كأنه صُنِّف ضمن من آمنوا ويعلمون الحقَّ من ربِّهم ، ولا سيّما بشأن البعوضة التي سبق أن مرَّ بها مع أصغر جرثومة ، وضَربَ الله مَثَلَها في الآية الكريمة : " **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ...** "[64] . لكنَّ تعبُّده كان من دون طقوسٍ دينيّةٍ ثابتة ؛ من دون معبدٍ بمعناه المألوف ، أو كما ذكر– هو ذاته – في سيرته الذاتيّة " سبعون " ، من دون كنيسته ؛ هذه التي كم أحجم عن التردُّد عليها ، مادام قد تبصَّر بها مسرحاً قد أتقنَ على خشبته الكهنة الممثِّلون أدوارهم ، الأمر الذي أدّى به إلى التهديد بطرده من مدرسته في روسيا ، وبإرسال تقرير بشأنه إلى الجمعيّة الفلسطينيّة التي كان يدرس على نفقتها[65] . علماً أنَّ في هذا الموقف الحُرّ تجاه الدين ؛ ما شكَّلَ – بحسب دراسة صابر عبد الدايم – قاسماً مشتركاً بين أدباء المهجر بعامّةٍ، ولم يقتصر على نُعَيمة بمفرده ، إذ أوردَ أنهم على الرغم من ديانة أغلبهم بالمسيحيّة ؛ فإنهم لم يتعصّبوا لها ، وهاجموا – كما نُعَيمة – رجال الدين الذين ابتعدوا في سلوكهم عن جوهر العقيدة[66] .

وبصدد مثل هذا التجوال التأمُّليّ التعبُّديّ الشامل في الخالق وخَلْقه ، هذا الذي حقَّقَه نُعَيمة عَبْرَ مؤلَّفه " نجوى الغروب " ؛ جاء في " الإشارات الإلهيّة " للتوحيديّ :

اللَّهُمَّ إنك جوّلتنا في آفاق مُلْكِك ؛ وأنطقتنا بلسان قدرتك ؛ وأدرجتنا بضعفنا في قُوَّتك ؛ وأسكنتنا عند مشاهدة عظمتك ...[67]

---

[62]–يُنظَر المرجع نفسه . ص 335 .

[63]–يُنظَر ديورانت ، ول . قصّة الحضارة ، الجزء الثاني من المجلّد الثاني ، 7 ، حياة اليونان ، ترجمة محمد بدران ، اختارته وأنفقت على ترجمته المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربيّة ، الطبعة الخامسة ، د – ت ، ص 234 – 235 .

[64]–سورة البقرة . الآية 26 .

[65]–ينظَر نُعَيمة ، ميخائيل . سبعون ، المرحلة الأولى ، ص 279 – 280 .

[66]–يُنظَر عبد الدايم ، صابر . أدب المهجر ، ص 266 .

[67]–التوحيديّ ، أبو حيّان . الإشارات الإلهيّة ، حقَّقَه وقدَّمَ له عبد الرحمن بدوي ، الجزء الأوّل ، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل ، القاهرة ، 1950 ، ص 133 .

خاتمة البحث :

مما سبق نستنتج ما يأتي :

-إذا ما تجلَّت النزعة التأمُّليَّة في مؤلَّفات نُعَيمة كافّةً ؛ فإنها تجلَّت بصورةٍ أوضح في مؤلَّفه " نجوى الغروب " ، بفعل انتمائه إلى المرحلة الأخيرة من حياته .

-عدم تخلّي نُعَيمة عن ذاته الفرديّة ، لدى انتقاله إلى كلّ محطّة تأمُّليَّة ، مقارِناً بينها وبين العنصر الذي يتوقّف عنده.

-تأمُّله مقارِناً بين الخالق مبدع الكون ، وذاته الفرديّة المشدوهة حيال عظمته .

-تأمُّله في العجائب القريبة من ذاته والمحيطة بها ، منتهياً إلى عدم تشكيلها الكثير بالقياس إلى هذه الذات التي تشكّل العجيبة الكبرى .

-تأمُّله مقارِناً بين الفضاء اللامتناهي في اتّساع آفاقه ، وذاته الفرديّة التي لا تشكّل بمفردها أو مع الأرض التي تنتمي إليها سوى ذرّةٍ لامتناهية الصغر .

-عودته إلى المقارنة بين الخالق والذات الفرديّة ، من حيث انتقالها إزاء الخالق من الشده إلى العجز والاستسلام، ومن حيث عدم إيجادها من سبيل في الحياة سوى الانكفاء على التعبُّد .

-انتفاء التدرُّج المنطقيّ في تنقُّلات نُعَيمة ما بين محطّاته التأمُّليَّة ، بفعل ما أملَت فوضويّته الروحيّة التي نتحسَّسُها عادةً لدى المتأمّلين .

-انتهاؤه بشأن تأمُّلاته العميقة في الخالق وعجائب الكون الذي أبدعه ، إلى التعبُّد والتنسُّك كاتباً وقارئاً في كهفه.

References:

-The Holy Quran.

-The Holy Bible, dar al mashriq, Beirut 1989, Gospel of Matthew.

1-Abu Al Faraj Bin Al Jawzi. Elite of the Elite, Al ma'aref Publishing House, Haydar Abad Al Dikin, India, first edition, 1356AH, part four.

2-Al Tawhidi, Abu Hayan. The Divine Signs, edited and presented by Abdul Rahman Badawi, part one, Fwad the First university press, Qairo, 1950.

3-Al jirjani, Abdul Qahir. Signs of Miracles, Dar Al Ma'arifa for printing and publishing, Beirut, 1978.

4-Khafaji, Muhammad Abdul Munim. The Story of the Islamic Literature, Lebanese publishing house, Beirut, 1986.

5-Durant, Will. The Story of civilization, part three of volume one, 3, India and its neighbors, translated by Dr. Zaki Najib Mahmoud, chosen and paid for the translation by The Arab Organization for Education, Culture and Science at the League of Arab States, fifth edition.

6-Durant, Will. The Story of civilization, part two of volume two, 7, The life of Greece, translated by Muhammad Badran, chosen and paid for the translation by The Arab Organization for Education, Culture and Science at the League of Arab States, fifth edition.

7-Al Rumi, Jalaluddin. The Quartets of Mawlana Jalaluddin Al Rumi, Interpretation of Muhammad Eid Ibrahim, Al-Ahmadi Publishing House, Qairo, first edition, 1998.

8-Saydah, George. Our Literature and Writers in the American Overseas, Al Sayeh library, Tripoli, Libanon, forth revised and edited edition, 1999.

9-Abduldayem, Saber. Overseas Literature - A Thorough and Analytical Study Of The Dimensions Of The Contemplative Experience In The Overseas Literature, Al ma'aref Publishing House, Qairo, first edition, 1993.
10-Lulua, Abdul Wahid. The Waste Land – The Poet and The Poem, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, third edition, 1995.
11-Mutran, Khalil. The Complete Poetic Works, first volume, foundation of Abdulaziz Saud Al-Babtain's Prize for Poetic Creativity, collection, arrangement, review and presentation of Dr. Ahmed Darwish, Kuwait, first edition, 2010.
12-Naimeh, Michael. Seventy, The Tale of a Lifetime, 1889-1959, phase one 1889-1911, Nawfal, Beirut, twelfth edition, 2011.
13-Naimeh, Michael. Seventy, The Tale of a Lifetime, 1889-1959, phase two 1911-1932, Nawfal, Beirut, ninth edition, 2008.
14-Naimeh, Michael. Seventy, The Tale of a Lifetime, 1889-1959, phase three 1932-1959, Nawfal, Beirut, eighth edition, 2004.
15-Naimeh, Michael. Sunset Monologue, Nawfal, Beirut, third edition, 2000.
16-Holup, Robert. Reception Theory, critical introduction, translated by Izzidin Ismael, the academic library, Qairo, first edition, 2000.